العلامة إينشتين يبسط رأيه في

العلم الحديث

والشعور الديني الكوني

[وجه نبوليون الى لابلاس — أعظم فلكي عصره ومؤلف كتاب «الميكانيكا السموية» — سؤالا قال فيه إنه لم يقع في مؤلفات لابلاس على ذكر «الله» فما سبب ذلك ؟ فكان رد لابلاس (لست بحاجة بامولاي الى مثل هذا الفرض) . في هذا الجواب يتلخص وصف موقف العلماء في القرنين الثامن عشر والتاسع من سر الكون، وهو موقف غلبت عليه صورة ميكانيكية وكنا الايمان بان النواميس الطبيعية كافية لتفسير كل ما في الكون ومردها الى القول بان كل حادث في الكون سبق تحديده بحسب هذه النواميس . ولكن المذاهب الجبرية والمادية وما اليها صدمت صدمتها الاولى في مستهل هذا القرن عندما أخرج بلانك نظرية « المقدار او الكوانتم» ولا نغالي اذا قلنا أن في دوائر العلوم الطبيعية والفلكية والرياضية في القرن العشرين انقلاباً قد لا يقل أثراً في مستقبل الثقافة البشرية عن أثر هذه الحرب العالمية الطاحنة وما ينطوي في ثنايها من بدور العالم الجديد . ولذلك صدرنا الجزء الاول من المجلد الثالث من المقتطف برأي عالم أميركي كبير في ناحية من موضوع العلم والدين ، ونختم باب المقالات برأي العلامة إينشتين ، وسنوالي نشرها يتاح لنا من هذا القبيل — المقتطف]

كلّ ما يأتيه الانسان من عمل وتفكير انما يأتيه اشباعاً لحاجات يحسّ بها او فراراً من الألم . ولا بدّ من تذكر هذا القول اذا حاولنا أن نستقصي النهضات الروحية او العقلية وكيف تنشأ وتترعرع . لان الشعور والتوق هما القوتان المحركتان للسعي الانساني والانتاج الانساني، في كل شكل من الاشكال ينجلي هذا السعي او يتجسم ذلك الانتاج

فما هو الشعور وما هي الحاجات التي حملت الانسان على التفكير تفكيراً دينيًّا أو على الايمان ، بأوسع معاني الايمان والتفكير الديني . فنحن اذا تأملنا ذلك وجدنا ان عواطف مختلفة كانت مهداً للتفكير الديني وللاختبار الروحي

ففي الشعوب البدائية كان للخوف اول حافز للانسان على الشعور الديني — الخوف من الجوع والخوف من الحيوانات الضارية والخوف من المرض والموت . ولما كان فهم العلاقات السببية الكائنة بين مظاهر الطبيعة وعللها محصوراً في نطاق ضيق ، كانت النفس البشرية تخلق كائناً شبيهاً بها الى حدّ ما ترجع اليه جميع الأفعال والاختبارات التي تبعث فيها شعور الخوف وتأمل ان تسترضي هذا الكائن بأعمال وتضحيات ، تثبت خبرة الشعب وتقاليده الموروثة، انها امور ترضيه او تكسر من حدة غضبه . هذا دين أدعوه دين الخوف

ثم يستقرّ هذا الدين بقيام طائفة من الكهنة تدّعي انها تتوسط بين الناس والكائنات

التي يخافونها وبذلك تقبض على زمام السلطة وتحلّ من الشعب في اعلى مقام

وكثيراً ما يجمع زعيم او طائفة او طبقة من الطبقات التي تسمى قواها من مصادر دينية ، بين منصب الكاهن ومنصب الحاكم الزمني . او قد تعقد محالفة بين طائفة الكهنة وطائفة الحكام للمحافظة على مصلحة الدولة والامة حسبما يرونها

وثمة مصدر آخر للشعور العقيدة الدينية في الشعور الاجتماعي وما يتصل به من ثواب وعقاب . فالآباء والامهات وجميع زعماء الشعوب بشر غير معصومين عن الخطإ ولا بمعزل عن الموت . فالتوق الى الاسترشاد والمعونة يخلق في النفس صورة الله الادبية والاجتماعية . هذا هو ربّ العناية الذي يحمي ويحكم ويثيب ويعاقب . هذا هو الاله الذي يحبّ ابناءه ويعهد السبيل لخلودهم . هو المعزي في الألم والبؤس والحامي المكلوم . هو الحافظ لأرواح الموتى . هذه صورة الله الاجتماعية . ومن اليسير ان يتتبع الكاتب تطوّر فكرة الله من ديانة الخوف الى ديانة الاجتماع او ديانة الآداب في كتابات البهود المقدسة . وديانات أكثر الامم المتحضرة وخاصة امم الشرق تغلب عليها صبغة الديانة الادبية

ومن أهم وجوه التحوّل في الأمم القديمة هو تحول الفكرة الدينية فيها من ديانة خوف الى ديانة آداب . ويجب ألاّ نخطىء بحسبان ديانات الاقدمين ديانات خوف مجرد وديانات المتحضرين ديانات آداب مجردة . لان الديانات الاولى والثانية انما هو مزيج ، يغلب على الاولى عنصر الخوف ويغلب على الثانية عنصر أدب النفس . وفي كليهما يتخذ الله صورة انسان

ولكن بعض الافراد الممتازين في الامم التي بلغت مرتبة سامية من الحضارة يرتفعون بفكرتهم الدينية فوق هاتين المرتبتين ويهم يدعو الى مرتبة ثالثة من الاختبار الديني أدعوه «الشعور الديني الكوني» . وليس باليسير تفسيره لمن لا يحسّ به . لانه لا يشتمل على صورة انسانية لله . ولكن من يحسّ به يدرك بطلان الرغبات الزائفة والاغراض الانانية الصغيرة وصغر النظام العجيب الذي يكشف عنه في عالم الطبيعة وعالم الفكر . ويشعر ان مصير الانسان اذا هو قيد له لذلك يحاول ان يفسر الكيان الكوني كلّه وحدة عاقلة بانية

ودلائل هذه الفكرة الكونية تبدو لنا في مهدي ديانة الخوف وديانة الاخلاق . في مزامير داود وفي رسائل الانبياء تقع له على آثار جلي . وعنصر هذه الفكرة الكونية أقوى في بعض منه في المذاهب الدينية الاخرى على ما اثبته لنا رسائل غير بعيد

وحافزة الدين كانوا يعتقدون في حب الخير وهذا الاعتقاد لا يعني [illegible] لا يعترف بانه مصبوغ في صورة انسان ولا سيما رجاله

وعليه ينعذر عليك ان تحد كنيسة تقوم معتقداتها الاساسية على هذه النظرة الكونية

الى الدين . فقد يتفق لنا ان نجد بين هراطقة العصور رجالاً كانت تدفعهم أسمى البواعث الدينية . فكان بعضهم في نظر معاصريهم ملحداً وكان البعض الآخر من الأبرار القديسين

وإذا نظرنا الى ديموقريطس والقديس فرنسيس الاسيزي وسپينوزا من هذه الناحية رأيناهم في صفٍّ واحد . فكيف نستطيع أن ننقل هذا الشعور الديني من انسان اذا كان لا يمكننا من تصور الله في صورة ما ولا يأذن بطبيعته في بناء فقه ديني عليه ؟ وعندي ان اسمى وظائف الفن والعلم هي أن تثير هذا الشعور وتغذيه وتحفظه متقداً في صدور الناس المستعدين له

ومن هنا نصل الى نظر جديد في علاقة العلم بالدين يختلف كل الاختلاف عن النظر المألوف . فدرس التاريخ يحملنا على الاعتقاد بأن العلم والدين ، خصمان يتعذر التوفيق بينهما وذلك لسبب معقول جداً . لأن انساناً مشبعاً بروح الناموس الطبيعي في كل حادثة تحدث ويسلم بفكرة وجود علةٍ لكل معلول ، لا يستطيع أن يسلم قط بفكرة كائن يعترض تسلسل الحوادث تسلسلاً طبيعياً . فلا ديانة الخوف ولا ديانة الاجتماع والآداب تستطيع أن تعمل في تفكيره وشعوره المقام الاسمى

لذلك رمي العلم خطأً ، بهدم آداب الناس لأن السلوك الأدبي مبني على العطف والتهذيب والعلاقات الاجتماعية ، ولا يحتاج الى تأييدٍ ما من العقيدة الدينية . ما أسرأ مصير الانسان لو كنا نحتاج الى اله رهيب أو اله يثيبهُ على كل ما يفعل في ارغامه على حفظ النظام وحسن السلوك!

فمن الطبيعي المعقول ان تقدم بعض الكنائس على محاربة العلم واضطهاد مؤيديه ولكني اثبت هنا ان « الشعور الديني الكوني » هو أقوى وأنبل باعث على البحث العلمي وليس باليسير على من لا يقدر امر الباحثين في فروع العلم ، وما يقتضيه الابداع العلمي من الدأب والتضحية والبذل في جميع نواحيه ، وبُعد مرمى الباحث عن الربح المادي ، ان يدرك قوة البواعث التي تحمل الباحثين على كل هذا . أي ايمان ثابت في انتظام الكون وأي ثقة عظيمة الى النور بلمعة من لمحات الحقيقة . حدوا بكپلر ونيوتن الى الكشف عن بعض قوانين الطبيعة خلال سنين مضاعفة من العمل المضني المملّ !

اما الذين لا يعرفون من العلم — البحث العلمي — الا مظاهره التطبيقية فكثيرون يخطئ فيهم الحالة العقلية في رجال . كان يخفّ بهم معاصروهم دائبون ساخرون ولكنهم تلقوا على مدى الدهر فيضاً مطرداً للاروع المؤاخاة لهم في جميع البلدان وعلى مدى جميع العصور ولا يستطيع أن يتصور مصدر الوحي الذي يدفع بهؤلاء الرجال الى الجد والتضحية والمثابرة رغم كل إخفاق وكل سخرية . الا من وقفوا حياتهم على هذه الغاية من البحث هو « الشعور الديني الكوني » الذي يحركهم ويمنحهم القوة !